وقفـــــة بالعقيق !

للأستاذ على الطنطاوى

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق
مائل بين أربع مائلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحترى »

. . . . أصابتنا فى المدينة عينٌ من المطر ، فحبستنا فى الدار أياماً ، وجاءت بعد مَحْلٍ من الأرض ، وشُحٍّ من السماء ، فروّت الأرض ، وأسالت الأودية ، فاستبشر الناس بنا (١) إذ كان قدومنا خيراً ، وزيارتنا غيثاً ، ومقامنا ربيعاً ؛ وليس أجمل فى أرض العرب من الربيع ، ولا أجدى من الغيث ؛ ثم انقشعت الغيوم بعد أيام ، إلا جهاماً من السحاب هفّاً رقيقاً ، وأفتق (٢) قرن الشمس تخلع على الدنيا حُلَّةً نسجت من خيوط النور . . . . وحَلِيَ اليوم وطاب ، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه ، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش ، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة ، وآنافنا بهذا الأرج يتضوّع من هذه التربة المعطرة « بعطر السماء » . . . وسرنا فى « شارع المنبرية » نريد الحرم ، ، فلم نكد نتعدى « المناخة » حتى قيل : قد سال العقيق .. فاذا الوجوه تطفح بالبشر ، وتفيض بالسرور ، وإذا على كل لسان : قد سال العقيق . . . . وإذا الناس يستعدون للخروج !

وهل يملك الناس نفوسهم ، فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق ، وقد سال العقيق ؟ وهل يذكر عربىّ العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر ، والفنّ والجمال ، والحياة الناعمة والعيش الرغيد ؟ أولم يكن وادى العقيق رمز الهوى والشباب ، ومغنى الغِنى والغناء ، ومثابة الفنّ والأدب ، ومجمع العشاق ، وندىّ الشعراء ؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب العالم ؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أبرع دواوين الأدب العربى وأحلاها ؟ ألم تمش على أطراف العقيق العشرات من القصور الفخمة ، والرياض النضرة ، والمغانى التى فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو فى الأذن تكراره ، ويلذ اللسان ترداده ؟ . . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، ويروِ أشعار العقيق ، من لم يَرَ قط العقيق ، فيهوى العقيق ، ويحنّ إلى العقيق ؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق ؟ . . .

أولم يسمع عبد العزيز بن الماجُشُون أن قد سال العقيق ، وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يتريث ولا يمر بداره ، ويمضى اليه من ساعته ، فيلهو فيه بعض اللهو ، ويسمع فيه الغناء ، وهو هو فى مكانته ووقاره ؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم ؟

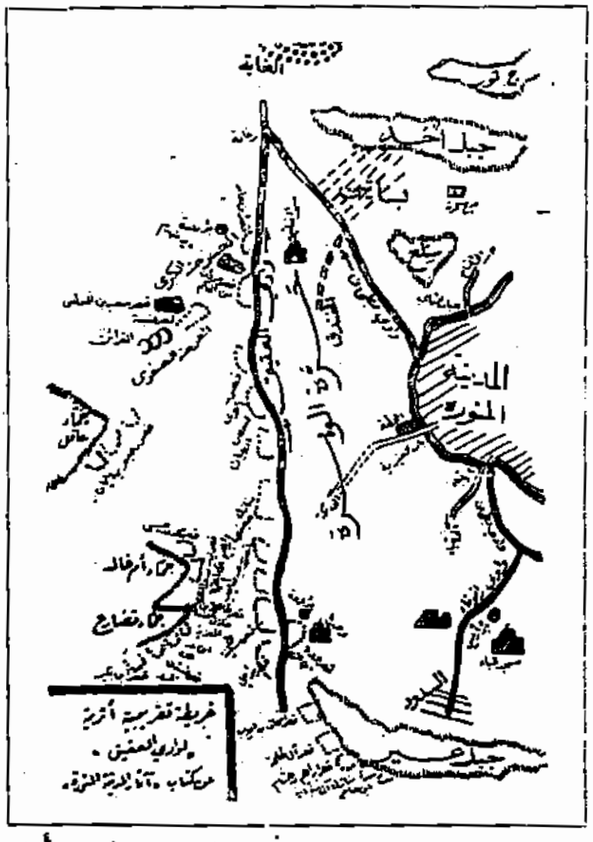

* * *

خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية ، الكابية الباكية ، التى أضاعها أهلوها ، وأهملوها حتى نسوها ... حتى بدت لنا الحرّة السوداء الواسعة (١) فسلكنا طريقاً فيها جديدة ، على يسار الطريق القديمة التى تهبط الحرّة على سلم منقورة فى الصخر ، وهذه النقرة هى ثنية الوداع ، التى طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن :

(١) معشر الوفد السورى
(٢) أفتق قرن الشمس ، أى بدا من فتق فى السحاب

(١) وهى حرة الوبرة احدى حرتى المدينة ، أو لابتيها

طلع البدر علينـا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

والتي منها أشرق « البدر » على القلوب والعقول ، فأنارها فهي منه في نور إلى يوم القيامة !

وسرنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فانتهينا إلى بئر عروة ، التي حفرها الامام الزاهد العلم عروة بن الزبير ، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير وهو مقيم في الرقّة ؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت على جذوع النخل ، فجلسنا فيها على كراسيّ مستطيلة ، تتخذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً ، تطلّ على الوادي العظيم

والوادي رغيب ، بين عدوتيه أكثر من مائة متر ، وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر ، وقد غثى الوادي وامتلأ ، والسيل دفاع يلتطم آذيّه ، وتصطخب أمواجه ، يرمي بالزبد ، ويطوّح بالفقاقيع ، ويجري متكسراً وله خرْخرة ، وله دَرْدرة ، وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً ، يحفون بـ «سماورات» الشاي البراقة العالية ، ويغنون ويطربون ، ما سمحت لهم « الحكومة » أن يغنّوا ويطربوا ...

* * *

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم وأوطانهم ، ويحنون إلى الغوطة الغناء ، والعين الخضراء ، والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدّق في ماء العقيق ، وأحن إلى أيامه الغر ، وماضيه الفخم ، وأفكر في حاضره المعض ، ووادية القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي سبيكة ذهب ، أو قطعة ياقوت ، ألقي عليها نور وهاج ، ثم أراها قد استقرت وسكنت ، فإذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق في العطر والنور ، وإذا من حوله العشرات من القصور ، تضيء كأنها الثريا في السماء ، فتنعكس أنوارها في الماء ، فتتوارى النجوم استحياء ، وتغض العين خجلاً ، ثم تستتر ببرقع الغمام وتبكي ، فيضحك العقيق لبكاء السماء ، وتضحك الأرض لضحك العقيق !

* * *

وأرى قصر عروة العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله الجليل ، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة ، ليأخذوا من شعره ، ويحفظوا من حديثه ، فإذا طال بهم الانتظار ، وتصرّم الليل ، ولم يفوزوا بطائل ، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا أن يباكروه من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق « يناجي طيف من يهوى ، ويبني عنده السلوى » وخشع الليل ، وأنصت الكون ، فقام عروة على شرفة القصر ، فراقه سكون الليل ، وفتنه منظر العقيق ، فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد :

إن التي زعمت فؤادك ملّها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما يبدي لصاحبه الصبابة كلها
وبيبت بين جوانحي حب لها لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها يوماً وقد ضحيت اذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها
لما عرضت مسلماً لي حاجة أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال : لعلها معذورة من أجل رقبتها ، فقلت : لعلها

فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله ، فقال له : أسمعت أبيات عروة أمس ؟ قال : وأية أبيات ؟ قال : وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملّها . . . .

فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : لعلها ، قال أبو السائب : أحسن والله ، هذا والله الدائم العهد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة عني فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول : لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل !

وينتظر عبد الله حتى إذا حان المساء ، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب اليه فقال له : « جئتك أنشدك وأحدثك » فيقول : « هات ما عندك » ، فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيتي العرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب : أعده عليّ ، فيعيده أبو مصعب ، فيستفز المخزوى الطرب فيحلف بالطلاق لاينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته !

ويمرّ بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول : كيف أمسيت أبا السائب ؟ فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول ابن حسن : مالك يا أبا السائب ، انى لا أكاد أفهم عنك

فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل عبد الله بن حسن على عبد الله ، فيقول : متى أنكرت صاحبك ؟ فيقول : منذ الليلة ، فيقول : إنا لله ! أىّ كهل أصيبت به قريش ! ثم يمضى

ويمرّ بهما عمران بن محمد التيمى قاضى المدينة يريد مالاً له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فيسلم ويقول : كيف أنت يا أبا السائب ؟

فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم فضل ثوب المعسر

فيقول القاضى لعبد الله : متى انكرت صاحبك ؟ فيقول : آنفاً ، فيسترجع القاضى ويهمّ بالمضى ، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول : أفتدعه هكذا أيها القاضى وتمضى ؟ والله ما آمن أن يتدهور فى بعض آبار العقيق ، قال القاضى : صدقت ، يا غلام ! قيدّ البغلة ، فيضع القيد فى رجله وهو يشير بيده ويصيح :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

* * *

ثم يضطرب الماء ويموج ، فتنطمس الصورة فلا أرى فى الماء إلا أشباحاً مبهمة ، مهتزة متداخلة ، ثم تبين وتضح ، فاذا أنا أرى قصر عروة ، وقد هيّئ وفرش ، ودارت به الخدم والعبيد ، واجتمع من حوله السراة والأعيان ، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق ، ملل الذى ينتظر شيئاً ويبطئ عليه ، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة ، وقد كان فى دمشق فأصابته الأكلة فى رجله ، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده ، وقيل له نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً ! فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية . قالوا : نسقيك المرقد . قال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ فى التهليل والتكبير ، وقال : شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك . فان الألم ربما عزب معه الصبر ، وأنت شيخ كبير !

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى . فقطعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليه المنشار . . . فقطعت ، وهو يهلل ويكبر . . . ثم أغلى له الزيت فى مغارف الحديد ، فحسم به . فغشى عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، فلما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها فقلبها فى يده ، ثم قال :

أما والذى حملنى عليك ، إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى حرام . . . .

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد — وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً ، وأدباً ونسباً — كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته ، وما يعلم عروة بشيء من ذلك ، وكان عروة رجلاً صالحاً قد عاف الدنيا ، وانصرف عنها ، ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر العُتْبى أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك ابن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومُصعب ، على عهد معاوية ابن أبى سفيان فقال بعضهم لبعض : هلمّ فلنتمنّ

فقال عبد الله : مُنْيتى أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة

وقال مصعب : منيتى أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتى قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة

وقال عبد الملك : منيتى أن أخلف الأرض كلها — وأخلف معاوية

فقال عروة : لست فى شيء مما أنتم فيه ، منيتى الزهد فى الدنيا ، والفوز بالجنة بالآخرة ، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم

فصرف الدهر من صرفه — إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله — فكان عبدالملك يقول : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى عروة ؟

(البقية فى العدد القادم)

علي الطنطاوى